عـــنوان الدرس الثّـــــامن

قصيـــــــدة التفعـــيلـــة

محاور المـــــحاضرة:

***- مدخـــــــل.**

1 . المحور الأول: رواد قصيدة التفعيلة الجزائرية.

2 . المحور الثّـــاني: خصائص قصيدة التفعيـــلة الجزائرية.

***- خاتمة.**

***- مدخـــــل:**

بات شعر التفعيلة الجزائري بكل فنياته وتجلياته يشكل زحمًا ثقافيا جادت به مختلف قرائح الشّعراء مواكبين به كلّ المآسي والآلام التي شهدوها أو شغلت تفكيرهم باستمرار إبّان الفترة الاستعمارية الفرنسية الغاشمة،والأهمّ من ذلك كلّه ما تكبده **الشاعر الجزائري** في خمسينيات القرن الماضي من تحدّي، وصراع عنيف مع الاستعمار الفرنسي من جهة،ونقل المشهد الاجتماعي

المشحون ثقافيا ،والذي انعكس على واقعه المعيش من جهة أخرى،إذ نهض هؤلاء الشّعراء من رماد الثورة مشاركين في الذود عن أوطانهم بكلّ ماجادت به قرائحهم من صور شعرية تعكس المعاناة والمعارك التي صورت هوية الشاعر والمثقف والسياسي والمواطن الجزائري للوقوف في أوجه المسخ والتقزيم والاضطهاد بشتى أشكاله الذي شنه الاستعمار الفرنسي على كلّ أطياف المجتمع الجزائري حينها.

كانت**"قصيدة التفعيلة الجزائرية"** تخوض غمار التأصيل والتأسيس الفني مبرزة حالات الصراع الفكري التاريخي مع الاستعمار الفرنسي حينها،إذ نهض العديد من الشّعراء الجزائريين الذين شغلتهم حالة الفوضى الاجتماعية من تخلف فكري وحضاري قبل و بعد الاستقلال، خاصة لدى نخبة من شعراء الحداثة الجزائريين نحوَ: **" أبو القاسم سعد الله/محمدالصالح باوية/عز الدين ميهوبي"** الذي ألهبوا العالم بشعرهم ووطنيتهم التي ليس لها حدود،فكان شعرهم مصدرا للنهل منه والقرض على منواله في رسم طريق الحرية ،فانطلقت في البداية حناجر شعراء القصيدة الحرة الجزائرية تندد بجرائم المستعمر، وتدفع بالشعب الجزائري إلى طلب الحرية.

1- المحور الأوّل: رواد قصيدة التفعيلة في الجـــزائر

بعد أن سار الشعر الجزائري الحديث بكلّ أطيافه وأعلامه مسارا تقليديًا بحتًا، عرف نقلة جديدة برزت في التجديد على مستوى المضامين والشكل و اللغة متأثرًا بحركة التجديد العربية التي عرفتها القصيدة العربية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية،وتعدد المآسي التي مرت بها الأمة العربية قاطبة،فكان ظهور قصيدة التفعيلة(**الشعر الحرّ**) بمثابة قفزة نوعية للنص الشعري الجزائري المعاصر ،أمّا "البداية الحقيقية الجادة لظهور هذا الاتجاه،إنّما بدأت مع ظهور أول نص من الشعر الحرّ في الصحافة الوطنية،وهو قصيدة **طريقي** لأبي القاسم سعد الله المنشورة في جريدة البصائر بتاريخ 23 مارس 1955"[1] في عددها رقم (313)، كما نجد العديد من الشعراء الذين جسدوا وضعية الثورة الجزائرية نذكر منهم: **محمد الصالح باوية** في ديوانه(**أغنيات نضالية**)،والشاعر **محمد الصالح خرفي** من خلال ديوانه (**أطلس المعجزات**)، والشاعر **صالح خشّابة** من خلال ديوانه (**الروابي الحمر**)،وغيرهم من شعراء الثورة الحزائرية،وفي هذا الصدد نسوق مقطعًا شعريًا من ديوان (**الزمن الأخضر**)،**لأبي القاسم سعد الله**،والذي يقول فيه:

يارفيقي
لاتلمني عن مروقي
فقد اخترت طريقي !
وطريقي كالحياة
شائك الأهداف مجهول السمات
عاصف التيار وحشي النضال
صاخب الأنات عربيد الخيال
كل مافيه جراحات تسبيل
وظلام وشكاوي ووحول[2]

وقد تطور شعر التفعيلة الجزائري على يد العديد من الشعراء الذي وجدوا فيه متعة جمالية، بعد أن تمكن المبدع الجزائري من صياغة عالمه بطريقة تجديدية عمادها الرؤيا كجوهر للخلق والإبداع التفردي القائم على خلفيات التجريب والذاتية الفنية،فكانت نصوصهم الشعرية تقفز "خارج المفهومات السائدة هي إذن تغيير في نظام الأشياء وفي نظام النظر إليها"[3]،وهنا نسوق مثالا عن قصيدة بعنوان(**رحلة حزن**) التي يصور فيها حالة شعورية ترواد الإنسان فيصبح لايدري كيف يتصور ذاته ممزق بين واقعه وتجربته الشعورية،وفيها يقول: **يارفيقي**

"أنا أحيا في ضباب
لم يراودني مرح
لم أضاحكء نجمةً عند المساء
منذُ أسدلنَا ستار
بين قلبينَا.. وطار
يارفيقي..
كل ما حوليَ صمتٌ.
ودوارٌ وعـــيَاء
وقلوبٌ من تراب"[4]

كما نجد أنّ الشاعر (**أبو القاسم خمار**) قد نهج نفس نهج الشاعر سعد الله في بعث النص الشعري الجزائري المعاصر ليواكب حركة التجديد على مستوى الأعاريض والأبحر والقوافي من أجل تقديم نفس جديد للمتلقي حتى يواكب هذه النقلة النوعية للنص الشعري الجزائر خاصة ماتعانيه النفس البشرية من صراعات، فكانت قصيدته بعنوان (**حالة للصراخ**) تعبر عن تلك الآلام العميقة للنفس البشرية التي أصبحت مستباحة ،تعاني الظلم/ التهميش/ التحقير،بحثًا عن الخلاص الأزلي من كل ذلك، فيقول:

ولما تضاءلتُ فوق الطريق
وغادرني الحلم، دون انطلاق
ولامستُ حدَّ الجنون..!
توهّمتُ في البحر، منفرجاً للتنفّس
منعرجاً للظنون..؟
أرى فيه، متسعاً لهمومي..
ومأوى هروبٍ، من الاختناق..
ولكنه البحر..! [5]

أمّا الشاعر (**محمد الصالح باوية**) فنجده هو الآخر قد أخذ من تجربة الشعر الحرّ نصيبًا في ديوانه الشعري(**أغنيات نضالية**) الذي صور فيه حالة الثورة الجزائرية المباركة بصور جمالية/فنية، فمعلوم أنّ شاعر الحداثة"لايعيش التجارب من السطح بل إنّه يحاول أن يستبطن هموم الإنسان وقضايا العصر مما يجعله قريبًا إلى النفس البشرية"[6]، وعليه نجد الشاعر(**محمد الصالح باوية**) في قصيدة (**ساعة الصفر**) التي يصور من خلالها حالة الذهول التي بدت إثر اندلاع الثورة التحريرية فيقول:

المدى والصمتُ والريح
تذري وهبةَ الأجيال في تلك الدقيقة
قطرات العرق الباني نداء
ثورةُ خرساءُ،
أهوالُ مغيرة
لون عمق يتحدى في جزيرة[7]

أمّا في قصيدة (**أغنية الرفاق**)،والتي يصور فيها حماس الثّوار ورغبتهم في الإنتقام من المستدمر الفرنسي،فيقول:

" يارفيقي، يارفيقي في الذرى،في السجن في القبر وفي
آلام جوعي
قهقهة القيد برجلي يارفيقي،حدّقوا فالثأرُ
يجتزّ ضلوعي
ياجنونَ الثورة الحمراءِ يجتزّ كياني ومغاراتِ

ربوعي
أقسمت أمي بقيدي، بجروحي سوف لاتمسحُ
من عيني دموعي
أقسمتْ أن تمسحَ الرشَّاشَ والمدفعَ والفأس بأحقادِ
الجموع
أن آراها ضربةً عذراءَ تغزو بسمةَ السفَّاحَ
في الحقل الخصيبِ"[8]

وهكذا قدم **النص الشّعري الحداثي الجزائري** صورة حية عن التجديد الشعري الحداثي الجزائري،والذي عرف تذبذبًا تاريخيًا خاصة في البدايات الحقيقة له،فقد شكل هذا النص نوعًا من الرفض، والتهميش الذي نال من جميع المبدعين الذين كتبوا الشعر الحرّ« كطارئ لغوي وكحدث جديد على ثقافة » [9]لم يعرفه الشّاعر العربي من قبل ، ومع ذلك بقيت الدعوة في صمت تدريجيًّا حتى افتكت اعترافها النقدي والإبداعي ، فخلقت بذلك مشهدا أدبيا مغايرا،غير أنّ الجديد في تلك الفترة في إبداع القصيدة الحزائرية الحرّة هو اتخاذها للتعبير بشكل مستمر عن أقانيم النفس الشاعرة بلغة شعرية تبرز هوية المبدع وتترجم إبداعه« وطريقة تفكيره وحتى في أحاسيسه» [10] لأنها حصيلة اجتماعية ونتاج للتاريخ الاجتماعي،وبعد شيوع القصيدة الحرة وركوب أغلبية المبدعين موجة الحداثة،والتي بدأ معها الإبداع المعاصر مرحلة شعرية جديدة ،كسر العديد من المبدعين من خلالها أفق توقع النقد العربي،لأن الشعر الحر« يختلف من حيث البناء الموسيقي والمعنوي»[11]،عن الشعر الجزائري العمودي،وبالتالي فرض المبدع الجزائري المعاصر نموذجه الجديد على ساحة الأدب والنقد العربي المعاصر تدريجيا.

2- المحور الثاني: خصائص قصيدة الحداثة الجزائرية

قدمت قصيدة التفعيلة الجزائرية الكثير من النماذج الشعرية الراقية التي حاكت فيها الكثير من النماذج الشعرية العربية،وحتى الغربية،ناهيك هن تنوع نصوص الشعر العربي المعاصر على مستوى الموضوعات أو المشاهد الشعرية الراقية التي احتفى بها الشعر الجزائري الذي صار يشكل" حركة إبداع تماشي الحياة في تغيرها الدائم ولاتكون وقفا على زمن دون آخر،فحيثما يطرأ تغيير على الحياة(...) يسارع الشعر إلى التعبير عن ذلك بطرائق خارجة عن السلفي والمألوف"[12]،،وقد تنوعت قصيدة التفعيلة الجزائرية لتأخذ أبعاد أخرى لم يعرفها النقد الجزائري من قبل،كما أنّ الخصائص الشعرية لقصيدة التفعيلة الجزائرية، لاتخرج في فحواها عن نمط القصيدة الحرة العربية ،والتي شكلت رسمًا عامًا لمسار حركة الشعر العربي المعاصر،فهي قصيدة تقوم على نظام السطور بدل الشطور وعلى وحدة التفعيلة الصافية بدل البحر والقافية والروي،و توظيف الأساطير و الرموز من ناحية المضمون خاصة بعد التأثر المباشر"بالعوامل التي طرأت على الشعوب العربية بعد حرب عالمية أسفرت(...) عن وجه جديد لعلاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالوجود"[13]،وعلاقة الإنسان بالطبيعة الفنية والأدبية التي أوجدت تجديدًا فعليًا في مختلف الأنواع الإبداعية،وكان الشعر الجزائري قد أخذ هو الآخر نصيبه من التحديث الفكري .

***- خاتمـــــة:**

من كل ماسبق ذكره قدمت القصيدة الجزائرية الحرّة صورة مغايرة عن القصيدة العمودية الجزائرية التي كانت سائدة خلال فترة طويلة من الزمن جعلت من النص الشعري الجزائري حبيس لغة شعرية غير مناسبة للغة التجديد،والمعاصرة فكانت حينها القصيدة الجزائرية الحرّة حدثًا تاريخيًا هاما نهض بالشعر الجزائري على غرار الشعر الحرّ العربي ليواكب مختلف التطورات الإبداعية

والنقدية التي من الممكن أن تمسه ،وتصلح من شأنه،وعليه يشير الكثير من النقاد على أنّ وفرة الإنتاج الشعري الجزائري في قصيدة التفعيلة قد بلغت ذروتها"فبلغ نتاج هرلاء الشعراء قمته،خصوصًا مابين عامي1954-1960"[14] و لا زالت الاصدارات الشعرية الكثيرة تؤكد قدرة الشاعر الجزائري المعاصر على التجديد الابداعي و تطويع أدوات الكتابة الشعرية تماشيا مع روح العصر.

الهـــوامش والإحـــالات:

(1) محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان، ط1، 1985، ص149.

(2) أبو القاسم سعد الله: الزمن الأخضر، م و ك، الجزائر، ط1،ص 144.

(3) محمد حمود: الحداثة في الشعر العربي المعاصر(بيانها ومظاهرها)، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لينان،ط1، 1996،ص 100.

(4) أبو القاسم سعد الله:الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،ط1، 1985،ص337.

(5) محمد بلقاسم خمار: موسوعة الشعر العربي، 2015/06/22 http://www.sh3r.info/poem43948.html

(6) أدونيس،زمن الشعر، دار الساقي، بيروت،لبنان،ط6، 2005، ص146.

(7) محمد االصالح باوية: أغنيات نضالية، موقم للنشر، الجزائر،ط2، 2008ن ص49.

(8) المصدر نفسه، ص41.

(9) عبد الله محمد الغذامي: المرأة واللّغة،ص208.

(10) نعيمة هدي المدغري: النقد النّسوي والسّؤال السوسيو لغوي، مجلة فكر،ع5،المغرب،2007،ص23.

(11) حسن عبد الجليل: اللّغة العربية بين الأصالة والمعاصرة(خصائصها ودورها الحضاري وانتصارها)،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية،مصر، ط1،2007، ص211.

(12) محمد بنيس: الشعر العربي الحديث، بنايته وإبدالاتها(الشعر المعاصر)، دار توبقال للنشر، المغرب، ط3، 2014، ص35.

(13) يوسف الخال: الحداثة في الشعر،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت، لبنان،ط1978،1،ص79.

(14) شلتاغ عبود: حركة الشعر الحرّ في الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1985،ص32.